فى سبيل الصحافة

بقلم السير فيلب جبس

مترجمة بقلم محمد عبد الحليم البرعى

مقدمة

لم تكن الحياة الصحفية يوما من الايام بالحياة الهنية عملا وقل أن تكون موردا للاثراء و أنا من الذين ينصحون الشبان بأن لا يتخذوا الصحافة فاتحة لأعمالهم ولا لأولئك الذين يودون حفظاً لكيان حياتهم و معيشتهم موردا مضمونا و وقفا منظما وحياة راضية مرضية

و إذا كانت المستحيلات أربعة فان الخامسة أن تسمع أو ترى أن هناك صحفيا بالمعاش يعيش البقية الباقية من أيامه على ثمرات حياته الماضية وحسبه أنه مضطر أن يعمل ويكتب و يدون حتى آخر نسمة من نسمات حياته بل حتى يسقط القلم من بين يديه وهو مكب على مكتبه و على عمله بل حتى يضرب جرس الآلة الكاتبة آخر ضربة فى وقت تميل رأسه و تنقطع أنفاسه و يصبح جثة هامدة و يسقط فوق جملة لم تكمل بعد

و بالرغم من كل ذلك فان الصحافة لاتزال أحسن سلوى فى هذه الدنيا للرجل الحاذق النشط الحائز على شيء من الطلاقة والفكاهة و الممتاز ببعض الصفات فى حسن استعماله للالفاظ وأن يكون فوق كل ذلك فضوليا بفطرته للوقوف على مبلغ حقيقة بهاء حياتنا التى تمثل على مسارح النهضة الاجتماعية وعلى شريطة أن يكون أبعد الناس عن الدنايا وأعفهم نفسا وأشرفهم غاية

ولاستطيع أن أبين لحضرات القراء بعض مايعترض حياة الصحفى من المخاطر وحرج المواقف أقص عليهم بعض القصص الآتية على سبيل التفكهة

الحادثة الاولى

إن من الهزء والسخرية أن يجد الصحفى نفسه يوما ما فى بعض الأحايين فى

حضرة عظماء العالم والقابضين على ناصية الحكم فيها وعلى أزمة الثروة أو أصحاب الحول والجاه وفى وقت قد أخذ يفكر فيه ذلك المسكين فيما إذا كان أجره عن المقالة القادمة ستفى بأجر مسكنه الاسبوعى ويتبقى بعدئذ بعض قطع فضية ترن فى جيبه الرث البالى

لقد ساءت الظروف وقضت على مهنة الصحافة ان أقضى ذات مرة بعد ظهر يوم من الأيام بحضرة ملك اسبانيا واشراف بلاطه رغم أننى لم أكن محقاً فى أن أكون بحضرتهم وكان ذلك يوم زواج أمير من أمراء آل بوربون بسيدة تمت بقرابة لملوك فرنسا اسلافها الأقدمين. ولقد كان الاحتفال بمنزل انكليزى قد تم فى انفسام المعدودة من رياض انكلترا ومن أملاك ديوك أرليانز ولى عرش فرنسا نحكم الوراثة وكما ينطق بذلك الشعار المنقوش على كل لوح زجاجى ومطبوع على كل فنجال وطبق فى منزله بمنفاه الذى احتفظ لنفسه فيه بحياة ملوكية ملؤها رغد العيش والعظمة والفخامة والجديرة به لما اتصف به من الدعة والكياسة شأن هنرى الرابع جده العظيم

لم يستطع ديوك أورليانز أن يتحمل تطفل الصحفيين فأصدر أوامره المشددة بأن لا يدخل أى صحفى قبل أن يتم صنع ذلك المعبد الخاص بأكليل الزواج ويطلى بالنقوش ليمثل معبدا ملوكيا قديم العهد عشية ليلة الاحتفال

ولضمان ذلك وحذرا من تسلل أى صحفى إلى ذلك المكان قد صفت قوة عظيمة جدا من رجال البوليس والمخبرين على امتداد ثلاث أميال حتى غابة نورتن ولحراسة جميع المداخل أيضا

ولقد كنت مكلفا وقتئذ أن أمد صحيفتى بوصف شامل لكل الاستعدادات التى كانت قائمة على قدم وساق وبقائمة بجميع أمراء وأميرات البوربون الذين يفدون من جميع انحاء أوروبا

ولانجاز تلك المأمورية على الوجه الأكمل وجدت أن خير طريق أسلكها هى اكتراء عربة فخمة أقلتنى إلى غابة نرتن ومن غريب المصادفات وحسن حظى انى التقيت بعديد من العربات التى تقل ملك وملكة اسبانيا وجميع أعضاء العائلة متراصة على طول الخط بجميعه مميمة وجهها شطر انفسام فاستقبلنى رجال البوليس ومخبروهم

كما استقبلت عربات بقية الأعضاء ومرت دون أقل معارضة من بين المداخل العظيمة المطلاة بالريحة الذهبية والتى يعلوها تاج فرنسا وشعارها ولقد استقبلنى فوق ذلك القهرمان بمنتهى الحفاوة والاكرام ظانا أنى أحد أعضاء البوربون وعلى ذلك دخلت وملك وملكة اسبانيا وفريق عظيم من كرام العقيلات وأشراف البلاط إلى المعبد وأخذنا نمتع النظر ببديع صنعه ثم تعديناه إلى مشاهدة نفيس الهدايا المقدمة للعروسين فالزينة المقامة بقاعة الوليمة المحلاة بجميل الأزهار حتى وصلنا إلى اسطبلات الدوق

وكان ملك اسبانيا على جانب عظيم من الغبطة والسرور وكثيرا ما وجه إلى شخصيا بعض ملاحظات بكل حفاوة واخلاص معتقدا أنى أحد رجال الدوق الأشراف واخيرا أعدت ادراجى فى المساء مخترقا نطاقا عظيما من رجال البوليس الذين كانوا يحيوننى على طول الطريق ومن ثم كتبت وصفا مسهبا بكل مارأيت مما أدهش جميع أصحابى وقرنائى

فى اليوم التالي شهدت الحفلة ورأيت ذلك الاجتماع العجيب — التقاء الدم الملكى القديم الفرنسى والاسبانى والنمساوى معا —

ومن لطيف ماحدث أن انتشى فى حفلة الوليمة أحد النبلاء الاجانب بعد أن احتسى من الكؤوس المترعة ماأثمله فظل يترنح يمنة ويسرة وينشد من الأغانى العامية ماطرب ملك اسبانيا وجميع الحاضرين وان أسخط عليه حوذى عربته التى أقلته بسلام

* * *

الحادثة الثانية

أن هذه الحادثة التى ظهرت فيها بين رجال البلاط البريطانى لتجعلنى كلما ذكرتها أشعر بخجل عظيم لتطفلى ذلك التطفل غير المرغوب فيه والذى لاأجد أمامى مايكفر عنه أو يبرره. وكان ذلك يوم شرع الملك جورج والملكة مارى فى افتتاح معرض المدينة البيضاء فى لندن

أخذا جلالتهما يتفقدان المعرض مبدئياً فى يوم مكفهر كانت فيه جميع انحاء المعرض كآكام فلندر — برك ومستنقعات — مما أثار سخط جلالته وأفرغ حلمه فأخذ

يظهر لمن أوكل اليهم الأمر بشكل محسوس جام سخطه وغضبه على تلك الحالة و بينما هو مسترسل فى كدره غاص قدمه فى منقع فياض فتدفقت الأوحال على كل ملابسه الرسميةومن ثم أدركته الملكة مارى قائلة (هيا ياجو رج حتى نعود إلى القصر .) فى ذلك اليوم احتشد الخلق ذرافات ذرافات أمام فناء المعرض بعد أن منعوا من الدخول حتى ينتهى الملك والملكة وتدخل حاشيتهما و رجال البلاط واشرافه وينتهون من زيارتهم أيضاً

أما رجال الصحافة فقد حجزوا أمام مدخل المعرض العام بواسطة حبال شدت من طرفيها إلى موقف استحال عليهم رؤية أى شىء ما مما جعلنى على جانب عظيم من الكدر وضيق الصدر غير لم أر لم أعدم وسيلة إلى كدح زناد أفكارى توصلا لاكتشاف خير حل لأخراجى من ذلك المأزق الحرج و بعد قليل أقبل رجال البلاط معا،وما كادوا يخترقون مدخل المعرض حتى وقف رجال البوليس بينهم و بين الجمهور سدا منيعاً حتى لا يتسلل أى مخلوق خلفهم

وجدت الظروف سانحة ومن العجز أن أدعها تمر دون أن استفيد منها فأسرعت بخفة القردة وسرعة البرق الخاطف وتخطيت الحبل الحائل وفى أقل من لمح البصر كنت ضمن رجال البلاط كتفاً لكتف

وقد حدث لحسن حظى أن هذه الحركة ،حركة التطويق التى قام بها رجال البوليس، قد حالت بين أحد العظماء (وزير فرنسا المفوض) و بين اتصاله ببقية رجال الحاشية. ولما كان ذلك الوزير يجهل الانكليزية فقد حاول عبثاً افهام رجال البوليس مركزه وحقيقته ولكنه لم ينل منه غير طعنة من كوعة فى صدره أعقبها صيحة الآمر الناهى « ارجع قافلا » وعلى ذلك استتب لى الأمر وأصبحت الشاغل الوحيد لفراغ محله قوة واقتداراً من حسن الصدف

ولقد شعرت من طرف خفى ورأيت أن المخبرين قد أخذوا يعدون رجال ذلك الوفد الملكى وقد ظهر عليهم دلائل الاقناع بأنه لم يتعد العدد المعين الصادرة لهم التعليمات الرسمية بشأنه ولما كنت أرتدى بدله رسمية بقلنسوه عالية حريرية فقد كان من السهل أن أظهر بمظهر الوزير الفرنسى المفوض أو على الأقل لم أكن مدعاة إلى الشك مطلقاً

ولا يفوتنى أن أذكر أن الشخص الوحيد الذى لاحظ اختراق النطاق من بين رجال ذلك الوفد كان السيرادوارد جراى (الآن فيكونت جراى) ولكنه لم يشأ اقصائى والتخلى عنى بل ابتسم ابتسامة معنوية لجرأتى وتطفلى هذا وبرودى النادر .وفى الواقع أننى لم أكن على شيء من ذلك الجمود والبرود كما يدل محياى ولكنني كنت فى أحرج المواقف التى قل أن تصيب شخصا فى الوجود وذلك أن جميع رجال الوفد قد خذوا يتحدثون مع بعضهم البعض ماعدا الملكة الكسندرا التى كانت صماء فقد كان كل همها أن تدرس كل المعروضات خلف ذلك الجمع عوضاً عن الدخول مع أى أحد منهم فى أى حديث

ولما كان من الصعب أن أجد من أتحدث اليه فقد اكتفيت بالتقهقر قليلا خلف ذلك الجمع أيضاً مما استلفت نظر الملكة الوالدة التى أخذت تفضى إلى برقتها المعهودة ببعض ملاحظاتها على تلك المعروضات دون أن تسمع إجاباتى التى كان ملؤها التردد الظاهر

ولأول مرة فى حياتى رأيت الاستقبال الملكى الصادر من بحر خضم من جماهير العالم رأيته كما يراه الملوك أنفسهم لا كما يراه جمهرة الناس رأيت بحراً زاخراً متلاطم الأمواج من الأوجه المختلفة المعالم المشرئبة الاعناق المؤلفة من ألوف من الاوجه ذات العين الواحدة (لأن أغلب المحتشدين لا يرى غير نصف وجهه — فعين واحدة) وكلهم يرفرفون بمناديلهم ويهتفون بملء أفواههم فى وقت تهتف فيه الموسيقى صارخة «فليحى الملك»

وفى وقت تفتحت مناظير عشرات من آلات التصوير وأديرت عشرات من أيدى آلات الصور المتحركة

ولما عدت إلى إدارة الصحيفة وجدت أن رئيس التحرير قد أذهله مناظر عدة صور شمسية وأنا أسير أهوينا بجانب الملكة الكسندرا — آمناً مطمئناً .أما وزير فرنسا المفوض فقد علمت أنه احتج أشد الاحتجاج على سوء معاملته

***

الحادثة الثالثة

كان من غرائب المصادفات المدهشة وفلتات الظروف الغريبة أنى وزميل لى

بصحيفة الكرونكل اليومية كنا أول من سمع بوفاة الملك ادوارد السابع من بين جميع مخلوقات ذلك العالم إذا استثنينا من كانوا بقصر بكنهام

كانت النشرات الطبية التى تصدر كلها آية فى الحزن ولو أنها لم تكن مظهرا لليأس وآخر نشرة صدرت ليلة وفاته كانت أحفل النشرات بشراً وسروراً . كنت طول نهار ذلك اليوم واقفاً أمام القصر أكتب تحت وابل من الامطار تحت حماية مظلتي وصفاً مسهباً لتلك المناظر المذهلة التى كانت من أكبر المظاهر الدالة على مبلغ الحزن السائد على جميع طبقات الأمة الصادر من أعماق قلوبهم كلما فكروا فى أن شمس ذلك الملك العظيم المحبوب ستغرب عما قليل وأن نجمه سيأفل وانه سيرحل الرحلة الابدية عن انكلترا بل وعن العالم بأسره ، وانى لمعتقد الآن أنه فضلا عن محبة ألوف من الخلق له لما اتصف به من حميد الصفات وجميل السجايا الفريدة والسياسة الحكيمة والمواهب الفطرية ولقد كان هناك فوق محل تلك الاعتبارات شعور داخلى سائد فى فؤاد كل شخص بأن فى وفاة ادوارد السابع اضطرابا للسلم العام ونشوب حرب عالمية كبرى لامحالة

وانى لأذكر إلى اليوم أن أحد الذين كانوا مجتمعين تلك الليلة صرح لى بتلك الفكرة حيث قال حرفياً « ان من بعد ادوارد لحربا عالمية كبرى طاحنة »

وان من أكبر البينات على مبلغ احترامه ومحبة الشعب لذلك الملك أن جموع المحتشدين حول القصر كانوا الاعداد لهم والذين كانوا يرقبون صدور النشرة الطبية الأخيرة كانوا خليطاً من جميع طبقات شعب لوندره ما بين كونتسات وبارونات وممثلين وممثلات من كبار رجال الأمة والنبيلات والعمال والعاملات من بريطانيين وأجانب وأجنبيات من رجال السياسة وحملة الأقلام ورجال الأدب وأقطابه الأعلام وفى الساعة الثامنة من مساء تلك الليلة أو حوالى ذلك الوقت دخلنا القصر مع بقية رجال الصحف وقد أكد لنا اللورد نويلز أن المنتظر أن جلالته سيقضى ليلة هادئة ملؤها الطمأنينة والصحة والعافية وأنه ليس ثمة حاجة إلى اصدار نشرات طبية قبل صباح الغد فحملت ذلك الخبر السار إلى مكتب صحيفتى و بعد أن شرعت فى الذهاب إلى منزلى افهمنى رئيس التحرير — شأن كل الرؤساء — أنه يأسف لاضطرارى لان أعود إلى أدراجى لامضى ليلتى بجوار السراى خيفة أن يحدث أى حادث

ولما كنت على جانب عظيم من التعب والاعياء فضلا عن أن معدتى كانت أفرغ من فؤاد أم موسى وكان الجوع قد أخذ منى كل مأخذ فقد أردت التخلص من القيام بتلك المهمة وأبنت له اعذاري غير أنه لم يسمح فاحتججت فذهب احتجاجى صرخة فى داو وهباء منثورا وآخر ما نالنى من وراء ذلك من ضير وبلغ ما أصابنى من ترددى أن آمن استصحابى زميل لى يدى أوى ليشاطرنى السهر

وعبثا حاول وانتهى بنا الأمر إلى الذهاب مكرهين عليه تنفيذا لمشيئة الرئيس

ذهبنا وكان أول عمل قمنا به أن أسرعنا بتناول العشاء أولا لسد فراغ معدنا الخاوية ثم اخترنا عربة ذات أربع عجلات وذهبنا إلى فناء السراى واستعد كل منا لتناوب السهر فى وقت يملأ الآخر جفوته فقط بالعربة

ولقد كان من حسن حظنا ومن عطف رجال البوليس علينا أن سمحت لعربتنا الحقيرة أن تلك العربة الوحيدة التى تظل داخل فناء القصر الملكى ورغم وجود مئات من السيارات الفخمة أمام القصر تقل كثيرا من عظماء الرجال الذين آثروا قضاء الليل على تلك الحالة

خلع أذن نعله واستعد للنوم أما أنا فقد أخذت أجوب الفناء جيئة وذهابا أدخن آخر سيجارة وأنا أرقب عن كثيب المنظر الخارجي القريب لمئات العربات والسيارات

لم يمض على طويلا حتى رأيت عربة ملكية قاربة جوبى من الفناء الداخلى وهى تسير الهوينا ولم تكد تمر من أمامى حتى تبينت عقب انعكاس أنوار مصباح الفناء انها تقل من كان وقتئذ ولى العهد والأميرة مارى وكان يلوح على وجهيهما الناصع البياض الفاضة دماؤه دلائل الحزن البالغ وكانت أعينهما تذرف الدمع

فأسرعت الخطى حول عربتنا وقلت لزميلى همساً انى أعتقد أن الملك قد فارق الحياة وفى أقل من لمح البصر كنا نهرول صوب مدخل رئيس اسطبلات القصر وولجنا بابا مفتوحا أمامنا وهناك التقينا بأحد رجال حاشية الملك الذى كان موليا ظهره جهة الموقد يتحادث مع رجل مسن آخر تبينت فيما بعد أنه الوزير البلجيكى وسألته بكل أدب واحترام

« كيف صحة الملك الآن ياسيدى » وقع بنظره إلى ساعة معلقة فى الجدار وقال وعلى شفتيه ابتسامة صفراء ملؤها الحزن العميق ابتسامة هى أقرب إلى البكاء منها إلى السرور وقال بصوت يفيض تأثرا

« يا سيدى لقد مات الملك ادوارد منذ دقيقتين »

والآن وقد تحقق الخبر من أحد الرجال الرسميين فلم يكن أمامنا إلا أن نسرع بنقل ذلك الخبر إلى مكتب صحيفتنا فقصدنا توا إلى نزل قصر بكنهام وهناك خاطبنا رئيس التحرير تلفونيا

أما النشرة الرسمية فلم توزع على الجمهور إلا بعد ساعة من ذلك الوقت الذى تأكدنا فيه ذلك الخبر

وعند ذهابى إلى منزلى كان بين يدى عدد من أعداد صحيفتي وقد نشرت فى افتتاحيتها حياة ومات الملك ادوارد السابع وبجمل سيرته وكانت أسبق الصحف إلى نشر الخبر .

اطلب من دار العصور للطبع والنشر

ومن جميع المكاتب المعروفة

مجلات المدينة الحديثة

وعدة مقالات أخرى

بقلم

اسماعيل مظهر